مجلة الشهاب • المجلد: 08، العدد: 01 (2022م) • ص ص 31 – 48
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

التجديد في التفسير: مفهومه ـ دواعيه ـ ضوابطه ـ أهدافه

Renovation in the qur'anic interpretation (tafsir): concept , reasons , controls and its objectives

د/ غنية بوحوش *
جامعة محمد الصديق بن يحيى – جيجل (الجزائر)
gbouhouche@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/11/24 تاريخ القبول: 2022/01/02 تاريخ النشر: 2022/03/15

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: حاول هذا المقال بيان ضرورة العناية بتجديد التفسير، كونه واحدا من العلوم الإسلامية الأكثر أهمية، لسيعه للكشف عن معاني القرآن الكريم، وعليه تنبني سائر العلوم، والمعارف، والآراء، والمذاهب. وهو بحاجة للتجديد، لقصوره عن الوفاء التام بحق القرآن الكريم، لمحدودية الطاقة البشرية.
ولئن وجب التجديد في علم العقيدة، وعلم الفقه، وأصوله، فهو في علم التفسير أوجب، لأنه خَزَّان العلوم الإسلامية جميعا ومَدَدٌ لها كلها.
وليؤتي التجديد أكله الطيب، ينبغي أن تنضبط حركته بجملة من الضوابط، تقيه التخبط والضلال.

الكلمة المفتاحية: تجديد؛ التفسير؛ ضوابط؛ أهداف.

Abstract: This article attempts to indicate the necessity of renovation in the qur'anic interpretation (tafsir) since it is one the important islamic sciences, because it seeks to reveal the meanings of the Noble Qur'an, and upon it other sciences, opinions, cognitions, schools are established. It needs to be renovated due to the limited human efforts to fulfill Qur'an's right. If renovation is necessary in sciences like creed, jurisprudence (fiqh) and its principles (usul al-fiqh), then it is even more needed in quranic interpretation because it encompasses and supplies all islamic sciences. For the renovation to bear fruit, it has to adhere to some guidelines to protect it from confusion and deviance.

Keywords: Renewal; interpretation; controls; goals.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله محمد الأمين، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الميامين، وبعد.

فإنّ العلوم الإسلامية بمختلف تخصصاتها، هي نتاجُ تفاعلٍ للعقل البشري محدودِ الوسعِ والطاقةِ، والمحكوم بالزمان والمكان مع الوحي المطلق الممتد، تفاعلٌ مع المعجزة الكاملة الخالدة، المتعددة، والمتجددة، وهي القرآن الكريم، وهي علوم تأخذ منه وتستند إليه من جهة، وتحاول خدمته من جهة أخرى.

ولأن ما تنتهي إليه تلك العلوم هو منتج بشري، فإنه موصوف بالنقص والقصور وإن رام الكمال، وهي بذلك بحاجة دائمة إلى النظر والمراجعة للنتائج والمناهج معا.

فعلم العقيدة وهو من الأهمية بمكان بحاجة إلى مراجعة وتجديد دائم على مستوى المناهج وطرق الاستدلال، وهو بحاجة إلى تصفية ضرورية من الفلسفات البشرية والآراء الكلامية العقيمة، التي كادت أن تطمس جمال العقيدة الإسلامية ووضوحها، وعلم الفقه بحاجة أيضا إلى تجديد ليكون حاضرا مع النوازل، جاهزا للقول فيها القول المقنع، وليجيب عن أسئلة العصر الإجابة الشافية الكافية، وليُرْبَطَ الافتراضيُّ منه بالأمثلة الواقية المعقولة المقبولة، وعلوم السنة والسيرة بحاجة إلى تجديد بما يصحح الرواية ويعمق الدراية، ويُجْلِي العظة والعِبرة؛ ولا يكتفي بما يُحَرِّك العاطفة ويُجْرِي العَبرة.

وإذا جاز، بل وجب التجديد في علم العقيدة والفقه وغيرهما، فإنّه في علم التفسير أوجب، لأن التفسير خَزَّان العلوم الإسلامية جميعا ومَدَدٌ لها كلها.

والدّعوة إلى تجديد التفسير، قديمة متجددة، ودعاته اليوم كثرة كاثرة، تجمع بين المخلص، والمغرض، الراسخ، والمتهوّر، ذي الـمُكْنة، والمتهافت، وعليه وجب التساؤل:

- ما مفهوم التجديد التفسيري؟
- ما هي دواعيه؟
- ما هي ضوابطه؟
- ما هي أهدافه؟

وهذا مقال حاول أن يجيب عن الأسئلة السابقة، وفق منهج تحليلي، في ثلاثة مباحث:

الأول: مفهوم تجديد التفسير.

الثاني: دواعي التجديد في التفسير.

الثالث: ضوابط التجديد في التفسير وأهدافه.

وانتهى إلى جملة من النتائج، والتوصيات، والله تعالى الموفّق لما فيه الخير.

2. المبحث الأول: مفهوم تجديد التفسير

تجديد التفسير مركب إضافي يفهم بعد فهم مركبيه:

1.2 . فأما التجديد لغة:

فمصدر من مادة (ج، د، د)، على وزن تفعيل، وجَدَّدَ الشيء، وَأَجَدَّهُ، واسْتَجَدَّهُ صَيَّرَهُ جديدا، وأَحْدَثَهُ؛ فتَجَدَّدَ[1].

وقولهم: "صيّره جديدا"، لا تعني بالضرورة غيّره، أو ألقاه، وأتى بغيره، إنما فعل به ما أعاده لما كان عليه أوّل أمره.

والتجديد، يكون على خمسة صور:

الأولى: الإبقاء على أصل القديم، وبعثه بصورة تظهره جديدا، ومن ذلك تجديد الأثاث، والمسكن، والمركب، وغيرها، من عالم الأشياء.

الثانية: الإبقاء على القديم كما هو، والإتيان بآخر جديد، كالاحتفاظ بأثاث قديم صالح، وإضافة آخر جديد. وهذا المعنى يصلح في عالم الأشياء، ويصلح أيضا في عالم الأفكار، والرؤى، إذ يمكن أن نحتفظ بفكرة أو رؤية قديمة -أثبتت دوام صحتها-، ونضيف إليها فكرة، أو رؤية جديدة، توسعها، وتثريها، ولا تنقضها.

الثالثة: بعث الخلق في الآخرة، والبعث إعادة إيجاده على هيئته الأولى، وهذا الفعل لله وحده، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[سورة الأنبياء الآية 104]، فهو عز وجل، قادر على إعادة الخلق، وهو أهون عليه، وهي حقيقة تعذّر على الكافرين استيعابها، فاستبعدوها، وأنكروها، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[سورة الرعد من الآية 5].

الرابعة: إلقاء القديم، والإتيان بآخر جديد، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[سورة إبراهيم من الآية 19].

الخامسة: إحياء معاني الإيمان في القلوب، وما ينتج عنه من العودة إلى العمل بمقتضاه، عبادة، وشريعة، وأخلاقا، وهو المعنى الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَبعَثُ لهذهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئة سنةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لها دينَها»[2].

ويُلحَظُ في عملية التجديد الآتي[3]:

- ✓ أن الشيءَ المجدَّدَ كان موجودا، وقائما، وللناس به عهد.
- ✓ أن هذا الشيء أتت عليه الأيام؛ فأصابه البلى، وصار قديما، خلقا.
- ✓ أن ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى، ويخلق.

وعليه فالتجديد ليس بالضرورة تغيير الشيء، وتحويله عن أصله بالكلية، ويجوز أيضا أن يكون الشيء الجديد شيئا آخر غير الأول، وهو المعنى الوارد في سورتي إبراهيم، وفاطر، وقد تقدم بيانه.

وأما التفسير لغة:

فمن الفِسْر وهو البيان، وفَسَّر الشيء تفسيرا أبانه تبيينا وإيضاحا، وهو أيضا كشف المغطى[4]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان الآية 33].

والتفسير في اللغة يستعمل في الكشف الحسي والمعنوي، إلا أنه في الثاني أكثر استعمالا[5].

2.2. وأما اصطلاحا:

فقد عرفه الزركشي -بأنه-:

"علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحكمه"[6].

ولعل تعريف الزركشي جمع بين التفسير، والاستنباط، فالأول: بيان معاني القرآن، والثاني: الاجتهاد في الكشف عن الفوائد والحِكَم، وهو لا يدخل في التفسير أصالة، إنما يدخل فيه تبعا.

وعرفه محمد علي سلامة -بأنه-:

"علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"[7].

وقوله: "بقدر الطاقة البشرية" نصٌّ في نسبية التفسير، وداع للنظر الدائم، وتبرير للتجديد المستمر.

وبناء على ما تقدم فإن تجديد التفسير كمركب إضافي هو:

"تجديد الفهم لكتاب الله تعالى على ضوء واقع المسلمين المعاصر وفق قواعد التفسير"[8].

ولا ينبغي أن يفهم من التجديد التفسيري أن معاني القرآن الكريم في نفسها قد تغيرت، وإنما الذي تغير هو أدوات الكشف عن تلك المعاني، إذ توفر من الآلات ما يتطلب تقديم تفسيرات للآيات غير التي تقدم تقديمها، فالذي "تغير وتطور هو عقل الإنسان الذي يتسع إذا ستنار، وفكره الذي ينضج إذا استقام مع كثرة البحث والتجريب، فيبدو له القرآن على حقيقته الأصلية الخالدة"[9].

والتجديد في التفسير ليس حركة رعناء تحاول الاستجابة لأهواء أدعياء التنوير والتطوير والتحديث، وتطلب ذلك بليّ أعناق النصوص وتحميلها ما لا تحتمل، وإنما هو: "استلهام آيات القرآن الكريم والتوجيه والهداية في كل ما يعترض حياتنا، مما يمس العقيدة أو الأخلاق، أو يدخل في بناء اجتماعنا وسياساتنا واقتصادنا، بما يكشف عن وفاء القرآن الكريم بحاجة البشرية، وفاء لا يعوزها إلى غيره من طرائق الهدايات، على أن يكون رائدنا في استلهام النص ألا نفرض عليه ثقافتنا وعلومنا أو نخلع عليه م فلسفاتنا وآرائنا، بل أن نأخذ من النص مستعينين بما تقدم ما يعطينا لنا من قيم أو يدل عليه من آراء ومعتقدات، أو يوحي به من أفكار علمية أو اجتماعية حتى ولو لم تتفق مع ما نعلمه من ذلك"[10].

ملحوظة:

ما تقدم هو مفهوم التجديد فيما يتعلق بالتفسير خاصة، أما ما تعلق بأمر الدين عامة، فمفهومه يؤخذ من حديث رسول الله ﷺ -السابق-: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَبعَثُ لهذهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئة سنةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لها دينَها»، وأحاديث أخرى، من مثل قوله ﷺ: «يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ»[11].

ومفهوم التجديد هنا يدور على المحاور الآتية[12]:

أ- إحياء ما انْدَرَسَ من العمل بالكتاب والسنة.

ب- محاربة البدع والمحدثات في الدين.

ج- تنزيل الأحكام الشرعية على ما يجدّ من وقائع وأحداث.

3. المبحث الثاني: دواعي التجديد في التفسير

1.3. أولا: الداعي الشرعي

يمكن تلخيص داعي التفسير الشرعي في ثلاثة أمور هي:

الأول: الدعوة القرآنية إلى التدبر

التفسير كما تقدّم هو تفاعل العقل البشري مع الوحي، محاولة للوقوف على مراده، ومقاصده، وهذا التفاعل عبّر عنه القرآن الكريم بـ: "التدبر"، وقد ذكر بلفظه في أربعة مواضع:

- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[سورة النساء الآية 82].
- ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [سورة المؤمنون الآية 68].
- ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص الآية 29].
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [سورة محمد الآية 24].

كما ذكر التدبر بألفاظ أخرى وفي مواضع عديدة مثل: العقل، والتفكر، والتذكر، أو بما ينتج عنهما من الفقه، والعلم، وغير ذلك كثير جدا في الكتاب العزيز.

والتدبّر فريضة وليس فضيلة، وهي دعوة عامة، للمؤمن والكافر على حد سواء، فإذا كان يرجى للكافر بالتدبر إيمان، فإنه يرجى للمؤمن، زيادة إيمان، ومعها فتوحات إلاهية عظيمة، وهي الوقوف على أسرار القرآن الكريم، واكتشاف درره الكامنة، وفوائده العديدة، التي تقود لخيري الدنيا والآخرة، للفرد والأمة.

وإن لم يكن للتدبر من ثمرة ترتجى، فالدعوة إليها من قبيل العبث؛ وتعالى الله تعالى عن العبث علوا كبيرا.

إن الأمر بتدبر آيات القرآن الكريم، دعوة صريحة إلى قراءته بعقولنا لا بعقول غيرنا.

ولقد عاب الله تعالى، وشنع عن الذين أبطلوا حواسهم، وتوقفوا عن إعمال عقولهم، بل ورتب لهم على ذلك عقوبة جهنم قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [سورة الفرقان الآية 44]، وقال تعالى أيضا: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف الآية 179]، وخير ما يُعْمَلُ فيه العقلُ كلامُ الله تعالى؛ الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي معجزاتــه، ولا تقل عطاياه ومننه.

الثاني: الدعوة القرآنية للسير، والنظر في سنن الأولين، واستقراء ماضيهم للاعتبار به، واستشراف المستقبل، والتخطيط له

دعا القرآن الكريم في مواضع عديدة جدا إلى السير في الأرض، والنظر في آثار المهلكين من جهة، وكذا النظر في آثار رحمة الله تعالى بعباده، وهي آيات متنوعة، والاعتبار يختلف باختلاف حال المعتبر المتدبر.

فكل يسير وينظر بحسب ما أوتي من الطاقات، والقوى، والقدرات، ولا شك أن في هذا اختلافا بيّنًا بين الناس، وفي هذا نمط من التجديد بين معتبر وآخر، إذ لا يلزم عليه أن تكون العبرة واحدة، والاتعاظ بها سبيل واحد كذلك[13].

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [سورة آل عمران الآية 137].

ودعا القرآن الكريم أيضا، إلى استشراف المستقبل، والتخطيط له، وهو المستفاد من قصة يوسف عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة يوسف الآيات من 47 إلى 49].

الثالث: طبيعة القرآن الكريم وطبيعة اللغة العربية

إن الكتاب الذي أُمِرنا بتدبره، خَصَّه الله تعالى بميزات عديدة تليق بكونه الكتاب السماوي الخاتــم، إنه كتاب هداية العالمين في كل زمان ومكان، من أجل ذلك كانت أسراره غير منتهية على الرغم من نصه المحدود "لفظا"؛ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [سورة الكهف الآية 109]، وتجليات ذلك في:

أولا: دلالاته الظنية

القرآن الكريم قطعي الثبوت كلُّه، لكنَّ بعضَه قطعيُّ الدلالة، وبعضه الآخر ظني الدلالة، وما كان من القرآن الكريم ظني الدلالة فهو مجال خصب لتعدد الفهوم.

ثانيا: احتواء القرآن الكريم على قواعد كلية، ومبادئ وأسس، لموضوعات متعددة، تركت تطبيقاتها، وتنزيلاتها، للاجتهاد، ومقتضيات الحاجة، والمتاح، ومن ذلك مثلا: الشورى في إدارة الحكم، فهو مبدأ، تركت طرائق تطبيقه للاجتهاد، والممكن.

ثالثا: اختلاف الوقف والابتداء، وأثره في اختلاف المعنى. اختلف العلماء في بعض مواضع الوقف والابتداء، وينتج عن ذلك اختلاف في المعنى، وفي التفسير.

رابعا: اختلاف القراءات -متواترة وشاذة-، وأثرها في اختلاف المعنى، فأما تعدد القراءات المتواترة فهو بمثابة تعدد الآيات، وبتعدد الآيات تتعدد الدلالات، قال الزركشي: "إن كان لكل قراءة تفسير يغاير الآخر... تصير القراءتان بمنزلة آيتين"[14]، وأما الشاذة فإن قيمتها التفسيرية ظاهرة غير منكرة، يؤكدها قول مجاهد: "لو كنتُ قرأتُ قراءةَ ابن مسعود، لم أحتجْ إلى أن أسأل ابن عباس في كثير من القرآن مما سألته"[15]، قال المباركفوري معلقا: "أي لما في قراءته من تفسير كثير من القـرآن"[16].

خامسا: اختلاف الرسم القرآني وأثره في اختلاف المعنى، للرسم أثر واضح في التفسير، وبتأمله يمكن جمع مادة تفسيرية ثرية جدا، فالقطع في بعض الكلمات يفيد معان غير التي يفيدها الوصل، فمثلا قطع أم عن من يفيد معنى بل دون وصلها[17].

كما كان الرسم فيصلا في بعض حالات الاختلاف بين المفسرين كما هو الشأن في قوله تعالى:

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [سورة الأعلى الآية 6]، هل هو نفي أم نهي؟ وإثبات الألف المنقلبة عن الياء رسما؛ دليل على أنه نفي وليس نهيا.

سادسا: انقسام القرآن إلى محكم ومتشابه: ولئن اختلف في إمكانية علم الراسخين به، فإنه ما من خلاف في وجوب التدبّر لحسن فهم المحكم، من أجل رد المتشابه إليه.

سابعا: كونه معجزة كاملة، متجددة، وخالدة، فالقرآن معجز كله، وقد وعد ربنا بإظهار معجزاته تباعا على مرّ العصور بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة فصلت من الآية 53]. وإظهاره عز وجل تلك المعجزات لن يكون بإنزال ملك، أو بعث رسول، فالنبوة والرسالة ختمت بالحبيب المصطفى محمد ﷺ، ولكن بجهود العلماء، والمفسرين الذين يزاوجون النظر في كتاب الله تعالى المسطور، وكتابه المنظور، ويعملون على إظهار معجزاته؛ بفضل منه تعالى، ومنّة.

وما الأعداد الهائلة للذين يسلمون باستمرار، ومن شرائح، ومستويات، وأعراق، وأصقاع في الأرض شتى، -على الرغم مما يتعرض له القرآن من حرب منهجية عالمية، لو تعرض غيره لبعض يسير منها

لاندثر منذ أمد-، إلا دليل على صدق وعد ربنا تبارك وتعالى.

هذا عن طبيعة القرآن، وأما عن طبيعة اللغة التي نزل بها، فإنه يمكن إجمال أثرها في اختلاف المعاني؛ وضرورة التجديد التفسيري في:

أ - وجود المشترك اللفظي وألفاظ الأضداد: ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [سورة المائدة من الآية 6]، فلفظة ﴿ وَٱمْسَحُواْ ﴾ تفيد الغسل والمسح معا، وقد وظفت آلية المشترك اللفظي في توجيه القراءة بالخفض في الأرجل[18]، وأن المراد به المسح والغسل معا في آن، فالمسح يطلق على مطلق إمرار اليد على العضو وعلى الغسل أيضا، ومنه يقال للرجل إذا توضأ فغسل أعضاءه قد تمسح، ويقال مسح الله ما بك إذا غسلك وطهرك من الذنوب[19].

وبهذا يكون الفعل قد ذكر مرة واحدة وأريد به معنياه - المسح للرأس والغسل للأرجل -، وهو أمر جائز لغة بل هو من كمال البلاغة وتمام الإعجاز، قال ابن تيمية: "اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه إذ قد جوز ذلك أكثر فقهاء المالكية والشافعية والحنبلية وكثير من أهل الكلام"[20].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [سورة البقرة من الآية 228]، فلفظة ﴿قُرُوٓءٍ ﴾ جمع قرء ويراد به في اللغة الطهر والحيض[21]، وكان لهذا الاشتراك أثر في اختلاف الفقهاء في كيفية عَدِّ العدة.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [سورة التكوير الآية 17]، فكلمة ﴿عَسْعَسَ﴾ تعني: أقبل ظلام الليل أو أدبر[22].

ب- ثنائية الحقيقة والمجاز: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [سورة الإسراء الآية 72]، فالعمى في الموضع الأول ليس هو العمى على الحقيقة، وإنما على المجاز.

كل ما تقدم يبيّن بوضوح أن القرآن الكريم حَمَّال ذو وجوه، وإنه ما من سبيل للوقوف على تلك الوجوه، ومن ثم إدراك الفقه الكامل، إلا بترك باب التجديد التفسيري مفتوحا باتّساع، قال أبو الدرداء: "لا تفقه كل الفقه حتّى ترى للقرآن وجوهًا كثيرة "[23].

2.3. الثانية: الداعية البشرية

من تعريف التفسير يتبيّن أنه جهد بشري ومن ثم فإنه ينبغي التمييز بين النص المُفَسَّر والنص المُفَسِّر، فالأول يحمل القداسة المطلقة، والثاني قابل للنظر، فالأخذ أو الرد. وهو علم يحيل إلى الاعتماد في المنقول، والنظر في المستنبط[24].

إنّ البشر جميعهم يتفاوتون في القدرات والملكات العقلية: فهما، واستدلالا، وتحليلا، وتركيبا، واستنباطا، واستنتاجا، ومن ثمّ فإن جهودهم التفسيرية تقبل المناقشة، وهي لا تملك من القداسة شيئا، بما في ذلك أقوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعا وأرضاهم، فقد بيّنت العديد من المواقف مع القرآن

والسنة أنهم متفاوتون في الفهم والإدراك -كما هو شأن كل البشر-، وقصّة الخيط الأبيض والخيط الأسود، من قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ [سورة البقرة من الآية 187]، شاهدة على ذلك، إذ فهمها بعض الصحابة على ظاهرها، حتَّى نزل قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ تتمةً وتبيانًا لخطأ فهمهم[25].

والقول بأنه قد جُمِع للصحابة الكرام ما لم يجمع لغيرهم -من التقى، وفهم اللغة -، ومن ثم فالاكتفاء بما قالوا في القرآن، والأخذ به، وجعل ذلك كالحتم اللازم، هو تعطيل لفريضة التدبّر التي أمر بها القرآن الكريم، وحجب للكثير من أنواره.

إنّ تزكية القرآن الكريم للصحابة الكرام؛ هو تزكية لحالهم، ومنهجهم في التعامل مع الوحي كتابا وسنة، فإن كنّا ملزمين باتباع الصحابة الكرام، فإننا ملزمون بأصول منهجهم، وليس بالضرورة إلى كلِّ ما انتهوا إليه من تفسير -ارتبط بأدوات عصرهم-.

لقد كان منهجهم قائما على البحث عن مراد الله تعالى لتحويله إلى عمل، فإن كان الكلام لا ينبني عليه عمل فإنهم لم يشغلوا به أنفسهم، بمعنى أنهم كانوا يَعُون جيدا المقصد من نزول القرآن، وأنه كتاب يريد صناعة أمة، بإرشادها ودفعها إلى فعل ما يحقق لها الريادة والشهادة، فكان همهم منصرفا -عما سواه- إلى كل ما ينبني عليه عمل.

وإن جوهر رسالة الإسلام هي التوحيد، والتوحيد تحرير، تحرير للإنسان من عبادة غير الله تعالى، وتحرير لعقله من الجمود، والتقليد للآخرين من دون حجة قائمة، ولا برهان مبين، ولقد عاب القرآن الكريم التمسك الأعمى بسنن الأولين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة الآية 170].

وأنا هنا لا أشبه أبدا اتباع السلف باتباع الآباء الضالين -معاذ الله-، وإنما أقصد أن القرآن الكريم دعانا إلى النظر في سنن الأولين فإن كان فيها خير أُخِذَ بها، وإلا فردها هو عين الحكمة، وهذا الطبري إمام المفسرين بالمأثور لا يتردد في رد أقوال مأثورة بفهمه، واصفا فهمه بالصواب[26].

ويؤكد أبو حامد الغزالي التفاوت بين البشر في الفهم والاستنباط فيقول: "إن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير مخبر عن حد نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده، ومحطه بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعا لأرباب الفهم"[27].

3.3. الثالث: الداعي الواقعي

ولئن عزف بعضهم عن التجديد واكتفوا بفهوم السلف، فإن الواقع يفرض التجديد فرضا، ومن ذلك:

أولا: كثرة المستجدات، والنوازل؛ وعلى جميع المستويات: نفسي، اجتماعي، تربوي تعليمي، اقتصادي، سياسي، وغيرها، وكلها تستلزم تجديد النظر في كتاب الله.

ثانيا: تتابع الاختراعات، والاكتشافات العلمية التي أعطت معانٍ جديدةً لبعض الآيات، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾ [سورة النساء من الآية 40]، وقد فسّر الأوّلون الذرة بالنملة استنادا إلى اللغة، وقراءة ابن مسعود[28]، وهو تفسير صحيح، غير أن علم الكيمياء أعطى معنى آخر للذرة، يُضَافُ إلى المعنى السابق ولا ينقضه، قال الألوسي: "ولم يذكر سبحانه الذرة لقصر الحكم عليها؛ بل لأنها أقل شيء مما يدخل في وهم البشر، أو أكثر ما يستعمل عند الوصف بالقلة "[29]، وهو يشير إلى أنه يوجد ما هو أصغر من الـذرة، ولقد أفادنا علم الكيمياء، أن الذرة هي أصغر جزء في الموجودات، وهو نفسه يتجزأ إلى مكونات صغيرة جدا، ولها وزن أيضا، وهو المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [سورة يونس من الآية 61]، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [سورة سبأ من الآية 3].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة النحل من الآية 8]، إذ ابْتُكِرَتْ السيارة، والطائرة، والمركبة الفضائية، وغيرها، لتبيّن المراد من قوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

ولم تكتف الاكتشافات العلمية، بتوسعة، وإثراء المادة التفسيرية للآيات، بل وأسقطت بعضا منها، ومن ذلك: قصر بعض التفسيرات علم الله تعالى بما تحمل الأرحام، على جنس الأجنة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ ﴾ [سورة الرعد من الآية 8]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ﴾ [سورة لقمان من الآية 34].

ثالثا: واقع الكثير من التفاسير، التي جمعت من الروايات والآراء ما لا يسهم بشيء في فهم النص، وأحيانا كثيرة لا يتردد المفسر في إطلاق العنان لخياله، ليفترض تفسيرات لوقائع غيبية سكت القرآن عن ذكر تفاصيلها لعدم الحاجة إليها، وكل ذلك مما يحدث مسافة بين المرء وبين القرآن وهديه، قال محمد رشيد رضا: " كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية والهداية السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو ونكت المعاني، ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين، واستنباطات الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات، وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد قارئها عما أنزل لأجله القرآن "[30].

والمآخذ المسجلة على الكثير من التفاسير يمكن إجمالها في الآتي[31]:

- بقاء المفسرين على طريقتهم التقليدية القديمة في التعامل مع النص القرآني تثقيفا للمسلم، وإغناء

له بأنواع المعارف اللغوية، والنحوية، والبلاغية والفقهية والتاريخية وغيرها مما يختلف باختلاف شخصية المفسر المعرفية.

- الاستعراض الطويل لثقافة المفسر، ومحاولة حشوها بكتب التفسير.
- بعض الأخطاء في تفسير بعض الآيات الكونية.
- حشو كتب التفسير بالخلافات المذهبية، والعقدية وغيرها.
- عدم الاستجابة لتحديات الواقع، إذ يُفَسَّر القرآن بعيدا عن حياة الناس، كأنما هو قوالب جامدة لا علاقة لها بواقع الناس، وحياتهم بل هي بحاجة إلى تفكيك ونشر.
- الاحتفال بالنقل عن أهل الكتاب من دون ضوابط.
- عدم التمييز بين القراءات المتواترة، وغيرها، إذ يسوق بعض المفسرين قراءات دون بيان طبيعتها، وهو مأخذ عظيم، فالقراءات المتواترة ثبتت لها القرآنية، ومن ثم الحجية في التفسير واللغة والفقه، ويتعبد بها في الصلاة وفي غيرها، وأما الشاذة فثبتت لها الصحة دون القرآنية، فلا يتعبد بها، وهي حجة في التفسير واللغة، والفقه عند من اعتد بها، وأما ما وراء ذلك فهو مردود، ليس حجة في شيء.
- كثرة رواية الأحاديث الضعيفة، والموضوعة في التفسير والاستنباط منها جنبا إلى جنب مع الأحاديث الصحيحة.

رابعا: الحاجة إلى التفسير وتجديده قائمة، لبقاء العديد من الآيات من دون تفسير، لقصور -وليس تقصير- المفسرين عن تبيينها، وما تناولوه من القرآن ليس كله شافيا كافيا وافيا.

4. المبحث الثالث: ضوابط التجديد في التفسير وأهدافه

1.4. أولا: ضوابط التجديد في التفسير

ولكي لا نَفِرَّ من الجمود، والتقليد إلى الفوضى التفسيرية المفضية إلى التبديد فإن حركة التجديد في التفسير ينبغي أن تنضبط بضوابط بعضها يتصل بمنهج التفسير، وبعضها يتعلق بالمفسر نفسه، والتي يمكن إجمالها في الآتي:

1.1.4. ضوابط المفسر:

أ- اتصاف المفسر بصحة المعتقد:

ولأن المفسر راو عن الله تعالى، فصحة المعتقد هي أول ما يشترط فيه، إذ عليه يقوم أمر الدين كله، قال أبو طالب: "اعلم أن من شرطه [أي المفسر] صحة الاعتقاد أولا ولزوم سنة الدين فإن كان مغموصا عليه في دينه لا يؤتمن على الدنيا، فكيف على الدين؟ ثم لا يؤتمن من الدين على الإخبار عن عالم، فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى؟ ولأنه لا يؤمن إن كان متهما بالإلحاد أن يبتغي الفتنة ويغر الناس بليه وخداعه كدأب الباطنية وغلاة المبتدعة، وإن كان متهما بهوى لم يؤمن أن يحمله هواه على ما يوافق

بدعته كدأب القدرية، فإن أحدهم يصنف الكتاب في التفسير ومقصوده منه الإيضاع خلال المساكين ليصدهم عن اتباع السلف ولزوم طريق الهدى"[32].

ب- تحليه بسلامة المقصد، واستشعاره رهبة التفسير الذي هو رواية عن الله تعالى بالقدر الذي يمنعه من التقوّل على الله تعالى، ويمنحه القدرة على ولوج خباياه، قال سيد قطب:

"لابد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم، بقلب خالص، ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة، أو أن تستهويه ضلالة، وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره"[33].

ت- امتلاكه أدوات التفسير قديمها وحديثها؛ متقنا لغة عصره وثقافته وعلومه، إذ ينبغي على المفسر أن يكون عالما:

- بلغة العرب، وخصائصها، وأسرارها في أصواتها، وصرفها، ونحوها، وبلاغتها (بيانا، وبديعا، وعلم المعاني)، وكل ذلك مما يؤثر في المعنى.
- وأصول الدين، وأصول الفقه، والقراءات والرسم، وعلم أسباب النزول، وعلم القصص، والناسخ، والمنسوخ، والأحاديث المبينة لتفسير المجمل، والمبهم[34].
- وفضلا عن ذلك ينبغي أن يكون المفسر "ملما بجملة من العلوم التي يستطيع بواسطتها أن يفسر القرآن تفسيرا مقبولا، وتكون هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسر من الوقوع في الخطأ، وتحميه من القول على الله بدون علم"[35].

ث- معرفة المفسر المساحة التي يمكنه التحرك فيها، كي لا يخوض فيما لا قبل له به.

2.1.4. ضوابط المنهج التفسيري:

أ- جامع بين الأثر، والنظر، بين الرواية والرأي والدراية، بين العقل، والنقل، إذ لا خصومة بينهما أصلا، كي يفصل بينهما في التفاسير.

ب- جامع لمحاسن كل ما تقدم من التفاسير بكل ألوانها واتجاهاتها ومذاهبها، عملا بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة الزمر الآية 18].

فالتجديد التفسيري ليس حركة ابتدائية مطلقة، بل هو استمرار، وامتداد لجهود الأولين، من دون تقديس ينتهي إلى للجمود، ولا تزهيد يؤدي إلى التبديد. ولا شك أن الحكمَ الذي أصدر في حق التفسير الكبير للرازي مثلا: "فيه كل شيء إلا التفسير" حكمٌ ليس من العدل في شيء. ومقولةٌ تهافتها غيرُ خافٍ، كما أن اتجاهات المفسرين المختلفة عقدية كانت أم فقهية، لا تسمح لنا بحال أن نتطرف ونحكم على تفاسيرهم بالحبس في سجن التاريخ، وتصفير قيمتها التفسيرية، وحصرها في القيمة التاريخية، واعتبارها في أحسن الأحوال قيمة علمية، وثقافية محضة، بما وظفته من علوم اللغة، والبلاغة، والفقه، والعقيدة.

ج- يتناول القرآن الكريم بالتفسير في إطار مقاصده الكبرى، من دون تجزيء[36]، ولا اقتطاع للآيات من سياقاتها، ولا تسطيح، قال محمد الغزالي: "التفسير القرآني ابتعد عن روح القرآن ومقاصده، فالمحاور القرآنية بشكل عام، لم تجد من يتبناها ويمشي مع آفاقها ليحققها في الحياة، بل بالعكس الأسلوب الفقهي تغلب على أنواع البحث التي كان يجب أن تبتكر في الميادين الأخرى"[37].

د- آخذ بأدوات العصر مفعل لها في الاستعانة بها في فهم كتاب الله تعالى، مستفيد من مناهج البحث الصحيحة المختلفة للوصول إلى حقائق القرآن الكريم، وقد حاول بعض المفسرين القدامى توظيف المنهج التجريبي للكشف عن حقيقة وزن الذرة والتي من معانيها النملة، قال أبو حيان -مفسرا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾ [سورة النساء من الآية 40]-: "فأخبر تعالى بصفة عدله، وأنه عز وجل لا يظلم أدنى شيء... وضرب مثلا لأحقر الأشياء وزن ذرة، وذلك مبالغة عظيمة في الانتفاء عن الظلم البتة، وظاهر قوله: ﴿ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾ أن الذرة لها وزن، وقيل لا وزن لها، وأنه امتحن ذلك فلم يكن لها وزن"[38]، إن لفظة ﴿مِثۡقَالَ ﴾ استفزّت فضولهم العلمي، ودفعتهم إلى الكشف عن وزن النملة، غير أن الميزان الذي توفر لهم يومئذ لم يسعفهم في الكشف عن وزنها، فقالوا بأن لا وزن لها، وحاول غيرهم تقريب وزنها، فقالوا على ما عبر به في القاموس المحيط: "الذَّرُّ صغار النمل، ومئة منها زنة حبة شعير"[39].

وكذلك يجب أن يستفزّنا القرآن الكريم للبحث العلمي الجاد المؤسس المتزن، حيث لا إفراط يؤدي إلى إلحاق علوم شتى بالقرآن - لا علاقة له بها -، ونسبتها تعسفا إليه، قال سيد قطب: "وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها، كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه"[40]، ولا تفريط يقتات على ردود الأفعال والمسارعة إلى تلقف منتجات الآخر العلمية والتشدق بأسبقية وجودها في القرآن الكريم، تشدق لا يسلب الآخر فضل السبق في كشف الحقيقة، ولا يمنحنا فضل امتلاكها قبله، لعجزنا عن رؤيتها قبله، وهي بين يدينا من قرون.

ينبغي أن يتحرر العقل المسلم من التبعية للآخر بأن يصنع لنفسه مشكلات علمية يبحثها -منطلقاتها القرآن الكريم -، عقل يرفض أن يجر جرا إلى ساحات بحث اختارها غيره، أو يبقى بانتظار دائما ما يلقى إليه من مشكلات افترضها، وفرضها الآخر.

هـ- مانع للخرافة والخيال: يلحظ أن بعض المفسرين يجنحون إلى الخرافة، وإن تجاوزوا السياق والمعنى المعجمي الظاهر للألفاظ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ [سورة الكهف الآية 77]. قال القرطبي: "قوله تعالى: ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾، قيل: هدمه ثم قعد يبنيه... وقال سعيد بن جبير: مسحه بيده وأقامه فقام، وهذا القول، هو الصحيح، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل والأولياء"[41]، وعلق الألوسي، فقال: "واعترض بأنه غير ملائم لما بعد إذ لا يستحق بمثله الأجر، ورد بأن عدم استحقاق الأجر

مع حصول الغرض غير مسلم ولا يضره سهولته على الفاعل"[42]. وتجد بعض المفسرين يطلق العنان للخيال فيتحدث في وقائع سكت القرآن عن تفاصيلها لأنه لا ينبني عليها عمل ولا ترجى من معرفتها فائدة، وأخشى أن يكون الخوض فيما سكت القرآن عنه نوعا من سوء الأدب مع الله تعالى، فهو سبحانه يسوق القصص للاعتبار، والفضول ينصرف عنها إلى تفاصيل لا طائل منها.

و- هَـمُّهُ أن يكون جسرا لبلوغ مقاصد القرآن، وليس ستارا حاجبا لها.

ز- هدفه أن يكون نصا مفسِّرا؛ خادما للنص المفسَّر (القرآن الكريم)، -وليس العكس-، بمعنى أن يحاول التفسير بيان مراد الله تعالى، بحسب الوسع، والطاقة، لا أن يُوَظِّف الآيات القرآنية -توظيفا تعسفيا-، للتأسيس لرؤية، أو مذهب.

ح- أن يكون التفسير الجديد صحيحا في نفسه.

ط- عدم معارضة التفسير الجديد لصحيح المنقول، واللغة، والسياق، وإجماع الأمة[43].

2.4. ثانيا: أهداف التجديد التفسيري:

وبناء على ما تقدم فإن حركة التجديد في التفسير تسعى إلى تقديم تفسير جامع، مانع، نافع:

- جامع بين الأثر، والنظر، ومختلف مناهج التفسير، وفوائد التفاسير.
- مانع للخرافة، والأساطير، والأباطيل.
- نافع، بأن يحرر بالهدي القرآني طاقات الأمة الكامنة ويوظفَها بما يصلح شؤونها العاجلة والآجلة.

فإن هو حقّق هذا المقصد العظيم؛ كتب له القبول والبقاء، وإلا فسوف يَدْرُس ويَخْلُقُ فيترك، ويأتي غيره ويحل محله، لأن حركة التجديد حركة مستمرة دائمة، غيرُ ثابتة، وبها تكشف أسرار القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة الرعد من الآية 17].

5. خاتمة:

هذا، وقد انتهى المقال إلى الآتي:

أولا: حركة التجديد في العلوم الشرعية عموما والتفسير خصوصا، وما يضبطها من التقعيد وبيان الثابت منها والمتغير، حفظ للوحي والعقل معا، حفظ للوحي من التضييع، والعقل من التبديد، وهي حركة لا بد منها لتحصيل الفضيلة واجتناب الرذيلتين: فضيلة الوسطية -والتي من أهم معانيها الأفضلية، وهنا الأفضلية فهما وعملا بالوحي-، واجتناب رذيلة الجمود على كل ما هو تراث -لأنه تراث وكفى-، حتى لو كان تفسيرا يرده النقل والعقل معا، ورذيلة دعوى الحداثة والتحديث، التي تجعل كل شيء قابلا لإعادة النظر بما في ذلك ثوابت العقيدة والعبادة، والقيم.

ثانيا: إن العزوف عن التجديد -جمودا أو تكاسلا-، يفسح المجال واسعا لأدعياء العلم، والمتسوّرين - وهم متعددوا التوجهات والغايات- للقول في كتاب الله تعالى بكل غريب عجيب، ما يستدعي تضييع جهود في الرد عليهم، والإسهام في الدعاية لهم، جهود كان من الممكن حفظها وصرفها في بيان الأنفع والأفيد.

ثالثا: إن التجديد التفسيري يسمح بالتفعيل المستمر لعملية التدبر التي تدفع الأمة إلى حسن التدبير، بما يصلح حالها ومآلها، وتمنعها من الإدبار عن واجباتها كأمة شاهدة على الناس إلى يوم الدين.

ومن الطريف أن كلاً من التفسير والتجديد على وزن تفعيل، وهي صيغة توحي ببذل الجهد لبلوغ المقصد، والجهود هنا ينبغي أن تكون جماعية، فعملية التجديد التفسيري التي يرجى منها نهضة للأمة، من المؤكد أنها عملية لا تَقْوَى عليها أفراد هنا أو هناك، وعليه فأنا أدعو إلى إنشاء المجمع التفسيري الإسلامي العالمي، وهنا أنوه بعمل عظيم قامت به مؤسسة مبدع للدراسات والبحوث العلمية بفاس-المغرب، فقد أنجزت ما أسمته بالتفسير التاريخي، وهي موسوعة تفسيرية إلكترونية قيّمة، كما أطلق على الشبكة العنكبوتية مشروع التفسير الموضوعي.

6. قائمة المراجع:

6. 1. أولا: المصاحف

- مصحف المدينة الإلكتروني برواية حفص عن عاصم، بالعدّ الكوفي (6236 آية).

6. 2. ثانيا: المطبوعات

- ابن تيمية، تقي الدين أحمد، 2003م، مقدمة التفسير، دار البصيرة الإسكندرية - مصر.
- ابن خالويه، الحسين بن أحمد، مختصر في شواذ القرآن، مكتبة المتنبي القاهرة.
- الأصبهاني، أحمد بن الحسن، 1424هـ/2004 م، المبسوط في القراءات العشر، دار الصحابة للتراث بطنطا.
- الألوسي، محمود، 1417هـ/1997م، روح المعاني، دار الفكر بيروت.
- أمامة، عدنان محمد، 1424هـ، التجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، الدمام المملكة العربية السعودية.
- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، 1420هـ، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر – بيروت.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، 1417هـ/1997 م، معالم التنزيل، دار طيبة للنشر.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، 1344هـ، السنن الكبرى، مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند.
- الذهبي، محمد حسين، 1424هـ/2004 م، التفسير والمفسرون، مكتبة مصعب بن عمير.
- رضا، محمد رشيد، 1990م، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الرومي، فهد عبد الرحمن، 1414هـ، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، مؤسسة الرسالة الرياض السعودية.
- الزركشي، بدر الدين، 1972م، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة بيروت – لبنان.
- السِّجِسْتاني، أبو داود، سنة 1430هـ/2009 م، السنن، دار الرسالة العالمية.
- السيوطي، جلال الدين، سنة 1408هـ/1988م، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت.
- الشريف، محمد إبراهيم، 1403هـ/1982م، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، دار التراث القاهرة.
- الطبري، محمد بن جرير، 1420هـ/2000م، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة.
- العسقلاني، ابن حجر، 1379هـ، فتح الباري، طبعة دار المعرفة، بيروت، سنة.
- الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت.
- الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب، 1425هـ/2004م، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
- الفيومي، أحمد بن محمد، 1987م، المصباح المنير، مكتبة لبنان.
- القرطبي، محمد بن أحمد، 1417هـ/ 1996م، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
- قطب، سيد، 1402هـ/1982م، في ظلال القرآن، سيد دار الشروق، بيروت.
- المباركفوري، أبو العلى محمد عبد الرحمن، 1385هـ/1965م، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، مطبعة المعرفة المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية.
- النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم، 1990م، المستدرك، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

6. 3. ثالثا: المجلات

- عبد الرحيم، عثمان أحمد، التجديد في التفسير -نظرة في المفهوم والضوابط-، مجلة الوعي الإسلامي الشهرية، الإصدار الحادي عشر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، ص13.

6. الهوامش والإحالات:

1- ينظر القاموس المحيط، الفيروز أبادي، ص 295. والمصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، 1987م، ص 36.

2- أخرجه أبو داود في سننه، سنة 1430 هـ / 2009 م، ج6، ص 349.

3- ينظر التجديد في التفسير - نظرة في المفهوم والضوابط -، عثمان أحمد عبد الرحيم، مجلة الوعي الإسلامي الشهرية، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، الإصدار الحادي عشر، ص 13.

4- ينظر القاموس المحيط، الفيروز أبادي، باب الراء فصل الفاء، ص 481.

5- ينظر التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، سنة 1424 هـ / 2004 م، ج 1 ص 12.

6- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، سنة 1972 م، ج 1 ص 13.

7- منهج الفرقان في علوم القرآن، محمد علي سلامة، 2002 م، ج 2 ص 6.

8- التجديد في التفسير، يحيى شطناوي، ثقافتنا للبحوث والدراسات، العدد 23 سنة 1431 هـ / 2010 م، مجلد 6 ص 12.

9- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، محمد إبراهيم الشريف، 1982 م، ص 194 – 195.

10- المرجع نفسه، ص 194.

11- أخرجه البيهقي في سننه، 1344 هـ، ج 10 ص 209.

12- ينظر التجديد في الفكر الإسلامي، عدنان محمد أمامة، 1424 هـ، ص 16 وما بعدها.

13- ينظر التجديد في التفسير – مادة ومنهجا –، جمال أبو حسان، مكتبة شبكة تفسير للدراسات القرآنية، ص 7.

14- البرهان، الزركشي، ج 1 ص 326 – 327.

15- أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب التفسير، ح رقم 4026، ج 4 ص 369.

16- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، ج 8 ص 227.

17- ينظر التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج 1 ص 13.

18- وهي قراءة أبي جعفر وأبي عمرو وشعبة عن عاصم وحمزة وخلف، وقرأها الباقون بالنصب. ينظر المبسوط في القراءات العشر، أحمد بن الحسن الأصبهاني، سنة 1424 هـ / 2004 م، ص 106.

19- ينظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، سنة 1417 هـ / 1996 م، ج 6 ص 62.

20- مقدمة التفسير، تقي الدين أحمد بن تيمية، سنة 2003 م، ص 56.

21- ينظر القاموس المحيط، الفيروز أبادي باب الهمزة فصل القاف ص 77.

22- ينظر القاموس المحيط، الفيروز أبادي، باب السين فصل العين، ص 582.

23- معالم التنزيل، البغوي، سنة 1417 هـ – 1997 م، ج 1 ص 46.

24- ينظر البرهان، الزركشي، ج 2 ص 172.

25- ينظر صحيح البخاري، ج 2 ص 677.

26- ينظر على سبيل المثال، ج 8 ص 465 من تفسيره.

27- إحياء علوم الدين، ج 1 ص 289.

28- ينظر مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه، ص 33.

29- روح المعاني، الألوسي، م 4 ج 5 ص 47.

30- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج 1 ص 8.

31- ينظر التجديد في التفسير، جمال أبو حسان، ص 11.

32- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج 4 ص 174.

33- في ظلال القرآن، سيد قطب، ج 1 ص 39.

34- ينظر الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج 4 ص 185 وما بعدها.

35- التفسير والمفسرون، الذهبي، ج 1 ص 189 – 190.

36- ينظر كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، سنة 1412 هـ / 1992 م، ص 42 وص 70 – 76.

37- المرجع نفسه، ص 68.

38- البحر المحيط في التفسير، الأندلسي، 1420، ج 3 ص 642.

39- القاموس المحيط، الفيروز أبادي، باب الراء فصل الذال، ص 421.

40- في ظلال القرآن، سيد قطب، ج 1 ص 181.

41- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 11 ص 20.

42- روح المعاني، الألوسي، مجلد 9 ج 16 ص 10.

43- ينظر التجديد في التفسير، جمال أبو حسان، ص 6.